حلاوة الدنيا..

رشا شمس

هذه أنا..

"أنا و ماجدولين"

أبي الغالي..

أعلم أنه لن يقرأ حرفًا مما أكتب لكنني أكتبه لأراه فيه.

لم أنسْ يومًا أنه كان أول من شجَّعني على القراءة واصطحبني إلى أكبر المكتبات حتى أحصل على ما أردته من كتب دوَّنتُ آسماءها في كراسة اللغة العربية الخاصة بي حين كنت في الصف الأول الإعدادي، فغر فاهي حين أرشدني صاحب المكتبة إلى الرف الذي تتوسده غايتي من الكتب وفتَّشتُ في جيبي عن قلم أشطب به بعضًا من تلك الكتب فقد كان مجموع ثمنها باهظًا، لاحظني أبي ولاحظ ارتباكي وحيرتي وقرأ بفطرته

السليمة ما يدور في عقلي فربتَ على كتفي بحنان وابتسم قائلًا: لن تتركي كتابًا واحدًا مما أردتِ، فابتاعي كل ما تريدين.

عدتُ يومها إلى البيت أحتضن مُقتنياتي الثمينة، أقبض عليها بفرحة وحرص مُنتشيةً بنصر حقَّقه أبي لي عن طيب خاطر، وافترشت سريري أحتضن جميع مؤلفات مُعلمي الأول "مصطفى المنفلوطي" واستهللت قرائتي ب" ماجدولين"، رواية من باكورة أعمال الأديب الفرنسي "الفونس كار" والتي عشقها المنفلوطي حين اطلع عليها وأعاد صياغتها بأسلوبه لِمَا فيها من دعوة جميلة إلى التمسك بقيم الحق والخير والجمال، لم أستطع النوم ليلتها فقد احتلتني شخوص الرواية وأرهقتني بل إنها أبكتني لسويعات طالت، تفاعلت مع روعة اللغة عند المنفلوطي وجذبتني سحر عباراته وانشغلت بها ومعها حتى أتى الصباح ونفسي تحمل يقينًا كان له دور كبير في تشكيل شخصيتي فيما بعد، ألا وهو " **إن السعادة الحقيقية هي نتاج نجاح الإنسان في التلاؤم والتكيف مع الواقع وما يفرضه عليه من ظروف وقوالب، فلا يهزم المرء إلا نفسه** "...

" **لا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب، ولا خير في قلب يخفق بغير حب**"..... **المنفلوطي.**

رشا شمس

حـــلاوة الدنيـــا

(عن درامـــا واقعيـــة)

بعـد الفـراق أصـبح كـلَّ شـيءٍ بطيئًـا، أصـبحتْ الـدّقائق والسَّاعات حارقةً، وأصبحتُ أكتوي في ثوانيها.

كيف يُقاس عمر الإنسان في هذه الحياة وكيف يُقدَّر؟ أيُقاس العمر بتلك الشهور ويُحسب بتلك السنوات التي يحياها كلٌ منا عنوة دون الاستمتاع بها؟

هـذا مـا يُـردده الرجـل لنفسه كـل صباح، تـساؤل لا يجـد لـه إجابة فتزداد حيرته ويتسع مدى الأسى ويمتد أمام ناظريه.

إنـــه "مُـراد حجـازي" المحـامي المـشهور، ذائـع الـصيت، حسن السمعة، طاهر اليد، عفيف اللسان، كلهـا صـفات محمـودة عُرفت عنه وقد نالها عن جـدارة واسـتحقاق، بينمـا حياتـه تمـضي رتيبة في طريقها المعهود، يذهب إلـى المحكمـة في الثامنـة صباحًا ومنها إلى مكتبه حتى الثالثة عصرًا، ثـم يرجـع إلـى البيـت فيتنـاول غذاءه بنمطية تخلو من الاستمتاع بما يـضعه في فمـه، يتعجـب مـن افتقاده للتمتع بمذاق ما يمضغ، حسبُه لقيمـات يُقمـن عـوده، فقـد

تناول وجبة خفيفة مع بعض عملائه أو أصدقائه من المحامين ووكلاء النيابة في الثانية عشر ظهرًا حسب ناموسه المعتاد، يستلقي ساعة على الأريكة الجلدية داخل غرفة المكتب في فيلته الأنيقة، تلك الأريكة التي لطالما شهدت ليال الأرق والحيرة والتخبُّط، يعشقها ويعشق جِلدَها الأسود، وحين تعلن دقات ساعة الحائط عن السابعة مساءٍ ينصرف "مراد" إلى مكتبه في ميدان التحرير، وسط القاهرة وقلبها المُتخم بكل قديم وجديد، يُطيل السهر فيه كل ليلة، يستقبل عملائه ويراجع قضاياهم أو يلتقي بعض أصدقائه أو بعض آبناء دائرته الطامعين فيه أو فيما يؤديه لهم من خدمات أو تسهيلات غير ما يمدهم به من مساعدات شهرية وإعانات مادية، واجب شرعي تحوَّل إلى حق مُكتسب بفعل العادة والتعود؛ أليس ذلك من صميم عمله كنائب يرونه نشط، حاضر الذهن، يقظ العقل في الجلسات المُذاعة لمجلس النواب؟!

هكذا تمضي أيامه في طريقها المرسوم وقد استقر الفتور والصمت والجفاف في حياته الخاصة حتى يئس من محاولات الإصلاح التي أجهدته وابتلعت الكثير من بذور صبره وطاقته، ولم يعد يحلم سوى بمواصلة القدرة على الاحتمال رأفة

بصغيرته "يارا" وقلبها المُرهف وحتى لا تتمزق بين أبوين لم ينجحا معًا كزوجين؛ ولكيلا ينهدم البيت الخاوي من الحب والتفاهم على رأسها الصغير فتفسد حياتها وتشقى سنوات طفولتها وصباها.

فمنذ سنواتٍ عشر انتحر الحب في حياته الزوجية تحت وطأة الشقاق واختلاف الطباع والاهتمامات وتشتت زاوية الرؤية للعديد من الأشياء، والعجز عن العطاء وافتقار فن المشاركة، فتراضى مع نفسه واستقرعلى الاستمرار رغم جفاف الأيام وخلوها من المتعة؛ أملًا في التوصل ذات يوم لصيغة تجعل الحياة محتملة مع زوجة يحترمها وكان يراها عاقلة، متزنة، ابنة خاله الوحيد والذي صارحه برغبته الشديدة في أن تصير وحيدته زوجة له قبل أن توافيه المنية، فتلقَّى مراد رغبة خاله بصدر رحب وأكبَّر له ثقته الغالية في شخصه ليختاره دون عن غيره من شباب العائلة ويأتمنه على غاليته "رباب" لتصير زوجته بعد مرور أقل من شهرين على حديث خاص جمعه بخاله ولم يعرف به أحدٌ أبدًا حتى العروس نفسها والتي اعتقدت أن مرادًا أفتُتن بها وسارع يطلبها زوجة فور تخرجها من كلية الطب؛ وقد سرَّها ذاك الاعتقاد وتفتحت على عبيره أوداج أنوثتها.

وبطبعه المُلتزم تقدَّم رسميًا للزواج من "رباب" ابنة خاله، وجمعهما سقف واحد ليكتشفا معًا الاختلاف الصارخ بينهما في طبيعة الشخصية ونمط التفكير وأولويات الحياة، وقبل أن تطرأ فكرة الانفصال على رأس أحدهما هنأهما الطبيب بجنين رقيق قد استقر في أحشاء العروس خلال شهر العسل.

فاستقبل مراد ابنته "يارا" باسمًا وكفَّ نفسه عن التطلع لأي تعويض عاطفي خارج إطار حياة يُريدها محترمة، فمرَّت السنوات بمُرها وقليلٍ من حلوها وصار "مراد" رجلًا أربعينيًا يراقب سنوات زواجه العشر قانطًا وهي تمضي به ويقف مُتسائلًا: ياتُرى هل تحمل لي الدنيا بين جنباتها أي لمحةٍ من سعادة؟.

إلى أن كان ذاك المساء الوردي، حين دخل عليه وكيله "إسماعيل القصير" يُنبئه بقدوم سيدة أنيقة ترغب في إقامة دعوة لاسترداد قطعة أرض كبيرة ورثتها عن زوجها السابق وفوجئت بمن يضع يده عليها ويرفض إخلاءها بكل السبل المُمكنة، همَّ "مراد" أن يشير إلى وكيله بإحالتها إلى أحد محاميَّ مكتبه وما أكثرهم إلا إنه توقف حين سمع اسمها، "مدام نهى الشهاوي"، لقد تذكَّرها وكأنها قفزت إلى ذاكرته عنوة، إنها جارته الرقيقة التي كانت تسكن قُبالته في عمارة الخلفاوي قبل زواجها وسفرها مع

زوجها المهندس إلى إحدى دول البترول، بعدها انقطعت أخبارها ولم يعد يعرف عنها شيئًا، ثم باع مراد شقته في الخلفاوي ودفع ثمنها كمقدم لفيلته في التجمع الخامس، أحد عشر عامًا مرَّت على آخر لقاء جمعهما على سلم العمارة حين قابلها صدفة وخادمتها الثرثارة " نوسة " تصعد درجات السلم خلفها تحمل عنها فستان الزفاف مُغطى بعناية وإحكام في حين انطلقت "نوسة" تصعد الدرج وهي تلوم مخدومتها بأدب لا يخلو من المزاح، لِمَ رفضتْ الآنسة نهى أن يرسل لها الأتيليه الفستان عن طريق خدمة التوصيل المجانية فيأتيها الفستان ولوازمه دون عناء وهي تجلس معززة مُكرمة ترتشف النسكافيه في الشرفة كعادتها كل صباح لكن "الآنسة نهى" دقيقة جدًا، تهتم بالتفاصيل وتحاول قدر استطاعتها الاستغناء عن اعتمادها على الغير والقيام بمسئولياتها وهي مستمتعة.

دخلت " نهى" المكتب فنهض "مراد" مستقبلًا إياها مُرحبًا، لقد أُخذ بجمالها الوديع الذي صار ناضجًا، أبهره مظهرها الأنيق في احتشام، الراقي في بساطة، دعاها للجلوس بعيدًا عن المكتب، في غرفة جانبية بسيطة، جدرانها سماوية اللون، مريحة للعين، تنطلق في جنباتها موسيقى هادئة من سمَّاعات مُثبَّتة في

الأركان، ابتسمت "نهى" وشكرته لأنه قد عرفها وتذكَّرها بعد كل تلك السنوات، وجلست بهدوء تروي قصة نزاعها مع مغتصب الأرض فداهم "مراد" إحساسٌ غامض غريب بأن نهى الجميلة، جارته القديمة العزيزة لن تكون مجرد عميلة لمكتبه في نزاع قانوني ولن تمر في حياته مرور العابرين.

خجل "مراد" من إحساسه المفاجئ الذي لا يعرف له سببًا، وخُيِّل إليه أن "نهى" الوديعة قد قرأت أفكاره وساورتها الشكوك بشأنه، خشي أن تدفعها لهفته إلى الندم على حضورها إلى مكتبه؛ فافتعل التحفظ معها رغم اضطرابه الداخلي، وقاوم كثيرًا رغبته في النظر المباشر إلى عينيها اللوزيتين طوال الحديث رغم اهتمامه الطاغي بأمرها وشوقه الجارف إلى ذكريات المراهقة والشباب العامرة بالأمل والبهجة، إنه الحنين، الحنين الذي يُحركنا بهدوء وشجن نحو سنوات كانت دافئة، نحو أيام ما غابت فيها شمسُ بهجتنا يومًا!

وانتهى اللقاء، ووعدها "مراد" ببذل كل ما يستطيع للدفاع عن حقها، وقبل أن تغادر تساءلتْ في حياء عن " الأتعاب"؛ لكي تكتب شيكًا بمُقدمها تتركه مع "الأستاذ إسماعيل" وكيل المكتب، فطالبها " مراد" بعدم الحديث في الامور المادية، فلا

ينبغي أن تشغل نفسها بتلك التوافه، فهي جارته وللجار حقوق، فلا عليها من تلك المسألة ولا داعي لأن تشغل بالها بالأمر كله، شكرته "نهى" بأدب وهدوء وغادرته، فإذا به يستوقفها ليُقدم لها بطاقةً تحمل اسمه ورقم جوَّاله الخاص الذي لا يمنحه لأحد من عملائه إلا نادرًا، فبادلته برقم جوالها وشكرته على حُسن استقباله وعميق اهتمامه وقوة ذاكرته رغم أنها قد تزيَّنت بالحجاب.

غادرت "نهى" المكتب و"مراد" يراقبها في صمت مُزدحم بالأفكار: تُرى ماذا سيكون من أمركِ معي، وأمري معكِ يا نهى، لِمَ اقتحمتِ عالمي الصامت الموحش في هذا التوقيت بالذات؟!

تكرَّرت بينهما اللقاءات بعد ذلك وصارتْ لا تجري بالضرورة في مكتبه بل ارتادا معًا النادي والكافيهات الهادئة، يرتشفا قهوتهما معًا ويتحدثان كثيرًا عما يجري حولهما من أمور الحياة، يتطرقان إلى ذكريات سنوات الجيرة والسُكنى في ذات العقار، والحديث عن ذلك الجار العجوز وزوجته الخرساء، أو مدام "إيفون" الجارة اليونانية العاشقة لشبرا والتي كانت تحفظ شوارعها عن ظهر قلب ولا تفتئ تُحدِّث عائلتها عن عميق حبها لمصر كلما طالبوها بالعودة إلى أثينا لاسيما بعد وفاة زوجها الجواهرجي، كان لعم "خليل" بائع الفول ومقلة "هاني" وصلاة

الجمعة في جامع "الخازندار" نصيب وفير من الحديث، فلا يمر يوم دون ذكرى من الأمس، وصار من المألوف أن يذهب معها إلى السوبر ماركت الكبير الذي تبتاع منه احتياجاتها المنزلية كل أسبوع ليلتقط هو الآخر بعضًا مما يروق له، وفي كل مرة ومع كل لقاء يتعمق لديه الإحساس الغامض ويستشعر الألفة والود القديمين، ويجد مزيدًا من الحماسة والاهتمام للقاء جديد في أقرب وقت، وكأن كل لقاء ينزع عن الجارين ورقة صفراء قديمة من أوراق الوحشة والتحفظ والخجل، ووجد كلٌ منهما في الآخر ثقة واحتواء يُغذيان رغبتهما الشديدة في أن يروي كلاهما للآخر ما كان معه في سالف السنوات الأحد عشر الماضية، فلا أحد يُمكنه التغافل عن سعادة لذيذة وجدها في صداقة كلاسيكية راقية لا تشوبها شهوة ولا تُنغصها غريزة.

وبدأت نهى تقص عليه ما كان معها، فكم تمنتْ أن تتزوج عن حب إلا أن القدر لم يهبها ذاك المُنتظر، والتفتت حولها فرأت نفسها فتاة يتيمة وحيدة، لا أشقاء لها ولا إخوة، أقاربها متفرقون ينتشر بعضهم في محافظات الدلتا والبعض الآخر في الأسكندرية حيث ينتمي والدها أصلًا، لكن الكل مشغول بشؤونه ومنصرف إلى حاله، لم ترى بعضهم ولم يزُرها كثيرون منهم منذ وفاة

والديها في حادث قطار مُفجع، خافت الوحدة وكرهتها، فبترت حلمها الرومانسي ودفنت رغبتها في غياهب الواقع، ثم تقدَّم إليها "عصام" ولم تجد فيه عيبًا يُذكر، كانت قد التقته عند صديقة لها لقاءً عابرًا، فهو صديق عزيز لزوج صديقتها، ثم وجدته ودون أية مقدمات يتقدم رسميًا للزواج بها، شاب مهذب، مهندس محترم، خلوق و"دخل البيت من بابه" كما يُقال، وبعد لقاء وحيد جمعهما في بيت صديقتها تزوجته وسافرتْ تكافح معه حيث يعمل.

كانت حياتهما هادئة لا تعرف صخب الحب ولا لحْنه المُبهج، فعصام رزين إلى حد بعيد، يزن كافة الأمور بميزان العقل والحكمة، يعشق النظام والهدوء وكل أمور حياته مُرتَّبة وكأنها تسير وفق نظام صارم، شعرتْ أنه يكبرُها بعشرين عامًا على الأقل رغم أن ما يفصله عنها ليس أكثر من سبع سنوات، جاء عيد زواجهما الأول و" نهى" تحمل على ذراعيها طفلهما البكري "آدم"، ثم توالت السنوات ولم تفلح الغربة في تقريب المسافة الفاصلة بينهما، لم يقرأ عصام أبجديتها الثائرة ولم يسعفه ذكاءه لفك رموز كيانها الحالم، تتوق "نهى" كثيرًا للحب، تعشق فيروز وتحفظ الكثير من أشعار نزار عن ظهر قلب، تشتاق أن يضمها زوجها إلى صدره فتشعر بحرارته، أن يفاجأها بأمسية

خاصة تجمعهما كعاشقين، تشتاق لأن تنصهر بحواسها وتمتزج بحواس رجل يحسها دون أن تنبس حرفًا، لكن لم يكن بوسعها شيء حتى صرخات الاحتجاج لم يكن مُقدرًا لها أن تُطلقها، فلقد جاءت صغيرتها " نانسي" إلى الحياة بعد ثلاث سنوات من الزواج لتشارك أخيها " آدم" قلب نهى ولتتجمل أمهما بالصمت من أجلهما، وتتحمل جفاف حياتها إلى الأبد منتظرة أن تتفتح مسام زوجها ذات يوم ليستنشق عبق احتياجها إلى حبه قبل جيبه أو تُدركها رحمة من السماء!

ببساطة ارتدت الحجاب وتابعت حياتها وانصرفت إلى التوفيق بين عملها ورعاية صغارها حتى كانت الفاجعة، فقد نهش المرض اللعين جسد "عصام" وأزهق روحه بعد صراع حمدتْ "نهى" الله أنه لم يكن طويلًا، فقد عرِف المسكين بمرضه البذيء وهو في مرحلة متقدمة، وقف أمامها الأطباء مكتوفي الأيدي بعد أن استأصلوا ثلثي رئته اليسرى ونصف رئته اليمنى، ثم قابل"عصام" وجه ربه الكريم مُبتسمًا راضيًا بقضاءه وقدره، وقد كرَّس حياته بأكملها لادخار مبلغ فخيم يركن إليه صغاره ويقيِّهم شراسة الحياة وتقلُباتها، وقبيل وفاته كان قد أفضى لنهى برغبته في التوقف عن العلاج والأدوية، ورجاها أن تعود به إلى مصر في

أسرع وقت ولينتظرهناك مصيره المحتوم كما قُدِّر له، ولا حاجة للمزيد من العمليات والمستشفيات والفحوصات والجلسات، فلقد ابتلاه الله ببلاء لا حيلة للطب فيه، فلِمَا ينفق مدخراته أملًا في علاج لن يُجدي وطلبًا لشفاء لن يأتِ، لم يكن عصام بخيلًا بقدر ما كان حريصًا على مستقبل أزهاره الصغيرة التي لم تتفتح بعد، يعلم يقينًا أنه قد تركهم أمانة غالية في يد زوجته "نهى" بنت الأصول وهي أقدر الناس على حمل الأمانة ولِمَ لا وهي شريكته الأساسية فيما ادَّخر وفيما جمع!

لم يُمهل القدر "عصام" الوقت الكافي ليعود إلى القاهرة كما أراد، لقد استرد الله وديعته صباح ليلة عيد ميلاده الرابع والأربعين، وعادت نهى إلى وطنها أرملةً حزينة ترعى صغيريها وهي التي غادرته عروسًا منذ أحد عشر عامًا، لتستقر في شقتها القديمة في الخلفاوي وتؤسس مكتبًا صغيرًا للديكور، دراستها وشغفها الذي تجاهلته وتشاغلت عنه بالزواج والإنجاب، ومضت حياتها نمطية بين عملها ورعاية طيورها الصغيرة حتى لا تشرد بعيدًا عنها، ثم شغلها أمر الأرض التي اغتصبها منها ذاك البلطجي المُتجبِّر، فشرعت تبحث عن محامٍ ماهر يُعيد إليها حقوق صغيريها، وهاهي الآن أمامه وقد روتْ له ما روت،

"مراد" جارها القديم العزيز الذي أخبرته ما كان معها دون مواربة ثم انفجرت تبكي.

اعترفتْ له في حياء بأنها جاءتْ إلى مكتبه وهي لا تفكر في شيء سوى في قضيتها، هل سيقبلها وقد غدا مشهورًا، ذائع الصيت، هل سيتذكرها هي شخصيًا؟ كم من الأتعاب سوف يُطالبها به هذا المحامي العبقري المعروف قبل أن تسترد حق صغارها المسلوب؟ ثم غادرت مكتبه وقد تراجعتْ قضيتها إلى حد كبير من دائرة اهتمامها وشَغلها شيءٌ آخر طوال الوقت، لماذا يبدو "مراد" حزينًا ومهمومًا هكذا وكأنه كبِر ثلاثين عامًا!

ماذا يشغل خواطره حتى يشرد بعيدًا عنها وهي تُحدثه عن قضيتها حتى ظنَّتْ أنه سيرفضها؟ لِمَ تشعر برغبتها الدفينة في أن تشارك هذا الجار القديم ما يشغل خواطره؟، لِمَا تشعر بمسؤولية نحوه وتريد حقيقةً أن تخفف وطأته؟ واصلت اعترافها الجريء وأخبرته أنها كانت قد قررتْ بعد يومين من لقائهما ألا ترجع إلى مكتبه مرة أخرى وأن تبحث عن محامٍ آخر تفاديًا لمتاعب تشعر أنها تتجمع في أفق علاقتهما وأن رياح عاتية توشك أن تهب على حياتها جراء لقائها بجار قديم كان في سابق الأيام لا يفصلها عنه سوى جدار أسمنتي ثم رحل كل منهما في طريقه وعرًا كان أو

ممهدًا، فما اللعبة التي يلعبها القدر معهما الآن؟! فإذا باتصال هاتفي يأتيها منه ليطمئن عن أحوالها ويطالبها بتقديم كافة الأوراق والمستندات التي تثبت ملكية الأرض لزوجها الراحل ليرفع لها القضية ويسترد لها الأرض، فانهارت دفاعاتها ووجدتْ نفسها لا إراديًا تُقابله صباح اليوم التالي لتسلمه الأوراق مُتناسية قرارها السابق بالبحث عن محامٍ ثان!

استمع "مراد" إلى اعترافاتها الجميلة وهو في نشوة طاغية واعترف لها هو أيضًا بذلك الإحساس الغامض اللذيذ الذي داهمه حين رآها في مكتبه لأول مرة بعد كل تلك السنوات، وكيف خجل منها وشعر أنها كشفته وخاف أن تظن به السوء؛ فتعمد التحفظ معها، وحين غادرته كان كل أمله أن يراها ثانية لذا دس في يدها الرقيقة بطاقته ورقمه الشخصي الذي لا يمنحه لأحد، وظل يترقب عودتها في لهفة ويستعيد صورة وجهها البيضاوي الجميل رغم مسحة الحزن الطاغية عليه ويتساءل في باطنه: **لماذا لا تمنحنا الحياة ما نستحقه من السعادة حين نريدها؟**

التقى الجاران القديمان في منتصف الطريق، واعترف كلٌ منهما لنفسه وللآخر بحاجته الشديدة له راجيًا أن يتخفف معه من تعاسة حاضرة بعدما صمتت حواسهما لسنوات، تجمَّعت أحلام

السعادة لديهما وتجلَّت في أن يلتقيا على فترات مُتباعدة وكأنها استراحة قصيرة من كل الهموم، فكلاهما محكوم بوضعه العائلي والاجتماعي وعاجزعن الفكاك من قيود حديدية تُكبل قلبه وتأد أحلامه، فإن كانت الحياة قد حرمتهما أن يُلبيا نداء القلب فليكن "سرهما الصغير" هو نصيبهما من السعادة وحلاوة الدنيا بقدر ما يحفظه لهما ضميرهما الأخلاقي وتربيتهما الشريفة، فلا مجال للخيانة ولا داع للابتذال، وليكتفيا معًا بذاك اللقاء المُتباعد كل بضعة أسابيع في مكتبه أو من خلال اتصال تليفوني كل بضعة أيام وليتصبرا برسائل قصيرة مُقتضبة على "الواتس آب" تكفي لاطمئنان كلٌ منهما على الآخر، وليطوي كلٌ منهما صدره على حبه وفي حنايا القلب يسكن المحبوب مُستترًا، تراضيا على ذلك واتفقا بعدم تخطي الحدود وسعد كلٌ منهما بمعايشة كاملة للآخر في أعماقه طوال الوقت، فوجدا في قربهما البعيد سلوى وفي بُعدهما القريب نجوى وسارت بهما الحياة في دروبها وقد استسلم الحبيبان للعقل وقبِلا بالمنطق.

دام سرهما الصغيرعامين كاملين كان "مراد" قد انتصر خلالهما في معركته على أرضها واستردَّ لها تلك الأفدنة الغالية كما أرادت، ثم باعتها "نهى" من خلال وساطته إلى رجل أعمال

كبير بمبلغ ضخم استقر وديعة في أحد البنوك مناصفةً باسم الصغيرين "آدم ونانسي"، امتنَّتْ نهى كثيرًا لما قدَّمه لها "مراد" من مساعدة حقيقية وأرسلت إلى مكتبه شيكًا ثمينًا كتعبير بسيط عن شُكرها وتقديرها لمجهوده الجبار في تخليص تلك الأفدنة من مُغتصبها ثم بيعها بذاك المبلغ الضخم، رأت أنها لا تهبه شيئًا بل هو حق أصيل لمُراد ومكتبه فيما كسبه صغيريها في تلك الصفقة المُربِحة، هاتفها "مراد" واعتذر عن قبول الشيك ولتعتبره نهى هدية صغيرة منه لآدم ونانسي وشكرها على ثقتها فيه وعلى السلام الداخلي الذي منحته إياه.

ثم جاءت النهاية من ناحيتها كما جاءت البداية أيضًا حين أبلغته بعجزها عن احتمال الضغط الرهيب الذي يُمارسه عليها "مُحي" شقيق زوجها رحمه الله، طبيب شاب، يطابقها في العمر، عاد للتو بعد أن أكمل دراسته العليا في جامعة "منيسوتا"، كان متزوجًا من فتاة أمريكية شقراء وله منها ابنة ذات خمس أعوام تقريبًا إلا أن زوجته أصرَّت على الانفصال حين أخبرها صراحة بنيته في العودة إلى القاهرة ليقف على تربية آبناء شقيقه المتوفى، حصلت "مونيكا" على الطلاق وحصلت معه على حقها الكامل في حضانة صغيرتهما "سِيا" وهكذا أُسدل

الستارعلى حياته هناك، وعاد "مُحي" ليطلب الزواج بنُهى وهو الذي أفسد حياته بيديه ليكون قريبًا منها مُعاونًا لها في رعاية الصغيرين، اعتذرتْ له بهدوء عن قبول عرضه الكريم للزواج بها ولتبقى له كما كانت دومًا زوجة شقيقه، فلقد عرفته عمًّا للصغيرين ولا يُمكنها أن تتخيله في موضع زوجها، فقد سكن "عصام" بينهما للأبد وسيظل حائلًا دون إتمام تلك الزيجة، فغضب "مُحي" أيُما غضب وكشف عن وجهه القبيح وانطلق يُهددها بانتزاع حضانة آبناء شقيقه منها إن هي تزوجت بغيره، فمن غير المعقول أن تظل نهى بجمالها ومالها وسنوات عمرها التسع وثلاثون فقط بلا زواج، بلا رجل تستقر في أحضانه ليلًا وتعتمد عليه نهارًا؟! وهو الأولى والأجدر بها، بل أنه الأحق والمُكلَّف شرعًا برعاية مصالح آبناء أخيه الراحل ولن يترك المجال فسيحًا لرجل غيره يأتي ليأخذ الجمل بما حمل..

ذهبت " نهى" إلى مكتب مُراد بنفسها كما كانت تجيء من قبل، وتحدثت إليه بنفس اللهجة الحانية التي كانت تتحدث بها في كل مرة، بل بالغت هذه المرة أكثر من غيرها في تأكيد مشاعرها الصادقة العميقة تجاهه، لكن ما باليد حيلة، وجد "مراد" نفسه يستجيب لحرارتها المُضاعفة فيخطفها بين ذراعيه مُعانقًا لأول

مرة، ينهال على وجنتيها المكتظتين يُقبلهما بحرارة وشوق، ثم يسحب عنها غطاء رأسها فيُسارع شعرها الحريري في الانهمارعلى كتفيها في جرأة تنهار معها دفاعاتهما فتهطل عَبرات ساخنة من عينيها اللوزيتين في توسل ورجاء ليتوقف مراد إلا أن دموعها زادته اشتعالًا وسحبته غزارة مشاعره نحو عُنقها فراح يلثمه بقوة فكأنه يكويه واستمر يضمها ويُقبلها وهي ساكنة غارقة بين ذراعيه لا تملك إلا تنهدات حارة فيَّاضة، وأخيرًا انطلق لسانه يفضحه وهو يُخبرها بما يحمله القلب لها من مشاعر طاغية أكثر مما تحمله له أضعافًا مضاعفة، فإذا بها تنزع نفسها من حضنه باكية ترجوه أن تظل علاقتهما طاهرة بريئة كما كانت طوال العامين الماضيين ثم ودَّعته واتجهت نحو الباب تُعيد غطاء رأسها إلى موضعه في محاولة إخماد بركان ثائر يرتج في قلبيهما، وقبل أن تفتحه استدارت نحوه ونظرت إليه نظرة طويلة مُعبرة فإذا بعينيها اللوزيتين التي عشقهما حتى الثمالة قد غطتهما دموع لا تتوقف وفاضت تجري على وجنتيها الرقيقتين أنهارًا.

ظلَّ "مُراد" مُتجمدًا في مكانه، ينظر إلى من خطفت روحه بحبها وهي تختفي عن ناظريه وعلى وجهه ابتسامة حزينة يحاول بها ألا يفقد تماسكه أمامها وأمام نفسه في اللحظات الأخيرة وقلبه يتمزَّق ألمًا وروحه تلعن عشوائية الدنيا وظُلمها.

غابت " نهى" وراء الباب واختفت من دنياه إلى الأبد، فقدت حياته النسمة الرقيقة الوحيدة التي تُرطب جفافها ورجعت حياة كل منهما إلى طريقها المعهود، انكبَّ مراد على قضاياه يفحصها وزاد عدد ما يقبله منها لعله بانهماك جاد في العمل يُصرف عنه بعض حزنه، أراد أن يكون أمينًا عادلًا مع زوجته "رباب " وهو الذي يشكو ظلم الدنيا ويحاربه، حاول التقرب منها والتودد إليها يُرافقه شعور كبير بالذنب تجاهها لعلها تفهم ضعفه وتلتقط طرف الخيط، فإذا بها قد انصرفت كليًا عنه وغاصت بكل كيانها في عيادتها التي افتتحتها حديثًا لتُفرغ فيها ألمها وفشلها في زواج لم يُحقق لها السعادة وزوج لم يعرف حُبها طريقًا إلى قلبه، فإذا بالعيادة وقد أصبحت مركزًا متكاملًا لطب وزراعة الأسنان وقد ذاع صيت دكتورة "رباب الشعراوي" وارتفع نجمها وما عاد مُراد أوغيره يشغل حيزًا من تفكيرها ولولا خوفًا يملأ نفسها على "يارا" تلك الصبية العاشقة لأبيها، المرتبطة به حد التلاصق، فهي تراه خير الناس وأشرف الرجال لطلبت "رباب" الطلاق وهجرت مُراد تمامًا.

أما " نهى" فلقد استنفذت كل طاقتها في محاولات مستمرة لإقناع " مُحي" بأنها قد قاطعت الرجال نهائيًا، فلا حاجة لها بهم

ولا غاية لها في الزواج به أو بغيره، لم يقتنع الرجل وظنَّ أنها تراوغه، فعدَّل عن فكرة كانت قد طرأت على باله بالعودة إلى منيسوتا فربما استطاع إقناع "مونيكا" باستئناف زواجهما من أجل الصغيرة " سِيا" إلا أن مكالمة هاتفية جاءته منها تُخبره أنها قد تزوجت من غيره وأن "ستيف" زوجها قد حاز على إعجاب "سِيا " واستحوذ على قلبها، وقد انتقلا للعيش معه في كاليفورنيا حيث يُقيم.

خسر "مُحي" فرصته الأخيرة مع زوجته السابقة وانصرف يصب كل غيظه وغضبه على "نهى" فيلاحقها أينما تذهب، يشغل نفسه بها ويشغلها بمحاولاته الضارية للاستحواذ على الصغيرين، اقترب بذكاء من آدم وبثه عطفه ورعايته، فوجدا معًا نقاط كثيرة مشتركة بينهما واهتمامات شبه متطابقة، ففي عيد ميلاده الثاني عشر أهداه عمه العزيز فرصة ذهبية لطالما تمناها، فقد اصطحبه إلى النادي الأهلي ليُجري اختبار قدرات للإلتحاق بفريق الناشئين، عرف مُحي كيف يستحوذ على قلب الصبي الذي أدمن تي شيرت المارد الأحمر وقد ساعده عمه الغالي على تحقيق حلمه بارتداء تلك الفانلة وجلس إلى جوار مُحي في السيارة وقلبه يكاد يغادر صدره ليطير ويرفرف في السموات العُلى.

لم ينسَ محي " نانسي" ولم ينس حبها الشديد للسباحة وشغفها بأن تحقق رقمًا قياسيًا باسمها في دورة الألعاب الأوليمبية القادمة، استطاع بحنكة ومهارة أن ينفذ إلى قلبها ويتغلغل داخل نفسها، فصارت لا تفارقه إلا قليلًا، يحرص على تدريباتها ويحفظ مواعيدها عن ظهر قلب، أحبته الفتاة وأفرغت كل شوق بداخلها لوالدها المرحوم تجاه شقيقه، عمَّها الوسيم ذو العينين العسليتين الساحرتين، تمشي بجواره مختالة وقد تعلق ذراعها بذراعه كأميرة خرجت للتو من كتاب الأساطير، لقد أحبها "مُحي" بصدق وبثها كل عواطف يبثُها أبٌ تجاه ابنته، فلقد رآها تعويضًا جاءه من المولى عز وجل عن صغيرته "سِيا" التي استقرت هى الأخرى في أحضان "ستيف" زوج أمها.

وهكذا حالت الأقدار بين العاشقين وسار كلٌ منهما في الطريق الذي رسمته له ظروفه ومصائره، يحركهما الحنين وتُقيدهما الحسرة، يسترجعان مشاهد قصتهما معًا منذ البداية فيشعران بلهيب الحرمان، فيهدهدان قلبيهما على الرضا بما أُتيح لهما من سعادة قصيرة بريئة لم تشُبها شائبة، التزما خلالها بالنقاء والعفة كإطار جميل لقصة حبهما وسرهما الصغير، فهما لم يبحثا أبدًا عن الماضي، بل إنه هو من بحث عنهما وانتشلهما من

حاضر مُميت لكنه كان ماض مبتور لا سيقان له فلم يستطع التمدد والنفاذ داخل حسابات الواقع وطيَّاته.

و رغم كل الألم وكل ما كان فقد ظل الحبيبان كل صباح وكما تعاهدا يستدعي كلٌ منهما في نفس اللحظة التي يفتح فيها عينيه لاستقبال يوم جديد صورة الآخر ويستحضر صوته إلى مُخيلته ويُدير معه حوارًا قصيرًا صامتًا ثم ينهض إلى حياته وكله شعور بأنه ليس وحيدًا، يستعيد كلٌ منهما علاقته بالآخر التي احتلته وغلبت عليه فيملأهما التعجب، كيف ولِمَا لم ترتفع علاقتهما إلى هذه الذروة من الحب والعمق والصراحة والخلود في تلك السنوات الخوالي التي كانا فيها جارين عزيزين لا يفصل بينهما إلا جدار مُصْمت؟ كيف لم يرها مراد بذات العين التى طالعها بها حين زارته في المكتب بعد كل تلك السنوات؟ كيف لم تجده نهى فارس أحلامها الذي لطالما انتظرته وفتشت عنه في القصص والروايات؟ هل كان لفراقهما كل تلك السنوات ذاك الأثر لتنقشع الغشاوة عن أعينهما فيبصر كلٌ منهما الآخر بعينٍ جديدةٍ؟ أين كانت كل تلك الحرارة وكل ذلك الحب قبل أن يسير كلاهما إلى مألوف حياته؟

واستمر التواصل العاطفي بينهما بغير اتصال أو لقاء كما تعاهدا في لقاءهما الأخير حتى لا تضعف همتهما، فقد اكتفيا بتصفح الصفحات الشخصية لكليهما على الفيس بوك ليقفا على تطورات الأحداث ومستجدات الأخبار دون أن ينخرطا ولو لمرة واحدة في محادثة مشتركة، لقد آمن كلاهما أن قوة حبهما تكمن في إخفاء مشاعرهما في بوتقة سرية لا يطَّلع عليها أحد، وأن سرهما الصغير هو كل ما تبقى لهما بعد جفاف الحياة ونضب الأمل.

كان الضباب يُغطي مستقبل علاقتهما فلم يستطيعا تحديد خطواتهما نحو تلك العلاقة، كانا فقط يملكان التمني دون فرصة حقيقية لتحقيق تلك الأمنية، وكيف ستتحقق وكلاهما لا يملك الشجاعة المطلوبة لمواجهة العوائق والحوائل بينهما، تساؤل وقح يفرض نفسه على واقعهما الجاف، وكانت إجابته أوقح وأقبح وهي استحالة زواجهما ولو حتى بعد حين، فقد أُصيبت "رباب" بفشل كبدي استسلمت على أثره لعملية استئصال للكبد المريض تبعها عملية أخرى لزراعة كبد جديد إلا أن جسمها كان قد أضناه المرض فرفض الانسجام مع الكبد المزروعة وأسلمت روحها في مستشفى كبير في ألمانيا وعاد مراد بجثمانها إلى القاهرة لتُدفن بجوار خاله تنفيذًا لوصيتها الأخيرة، انهارت "يارا" حزنًا

على أمها التي فارقتها ولم تُكمل الصغيرة بعد عامها الثالث عشر ولولا احتواء مراد الشديد لها لكانت قد عرفت طريقها إلى اكتئاب يقتلها ويُجهز عليها، ازدادت الفتاة التصاقًا بوالدها وحرَّكتها غيرتها الشديدة عليه إلى استحواذ كامل سيطرت به على أبيها وعلى وقته في محاولات منها لإغنائه عن حاجته لأي أنثى، فلا يمكنها أن ترى أو أن تسمح لأي امرأة أن تدخل قلب أبيها أو تسكن حضنه، حَزَنَ مراد من أجلها والتصق بها كرد فعل لا إرادي وأقسم لها أنها باتت الأنثى الوحيدة في حياته، بينما تستقر أنثى أخرى في باطن فؤاده.

اطَّلعت "نهى" على ما صار إليه حال "مراد"، أشفقت عليه وبكت على ما آل إليه حاله، فحاصرها اليأس وتعمَّق داخلها الألم وفي غفلة من وعيها وتحت وطأة الضغط الشديد الذي يُمارسه عليها "مُحي" من خلال آبناءها وقَّعت على وثيقة الزواج الذي لطالما انتظره الجميع سواها، فتنبهتْ تلك الليلة وقد استقر "مُحي" إلى جوارها في الفراش مُطالبًا إياها بما يكتمل به الزواج، الفراش الواحد وما يعنيه هذا من علاقة كاملة، فقد أصبحت "نهى" زوجته لا زوجة أخيه وأقسم أن يمنحها السعادة التي حُرمت منها في سنوات ترمُلِها، فما أحلى أن يكون هناك

رجلٌ في حياتها يروي ظمأ شبابها ويُنير عتمة لياليها، ويشتعل معه جسدها رغبة ثم يرتجف نشوة، رجلٌ يحمل لقب زوج.. زوجها.. مِلكُها الخاص وهي كنزُه الثمين.

حاولت "نهى" استدراك الأمر وانتهى "مُحي" إلى أن يخلع عنها ملابسها، فلا مجال للحرج أو التهرب، لكنها انتفضتْ وكأن ثعبانًا لدغها وأسرعت تنزوي في ركن الغرفة وانخرطت في بكاء مرير، لا يشغل قلبها وعقلها شيء سوى صورة مراد، كم تمنَّت أن يكون هو من يشاركها الحدث الآن.

التزم "محي" الصمت رغم حزن استقر في قلبه، فقد تصور أنها قد قبِلتْ فعليًا به كرجل قبل أن توافق على الزواج الذي ما فتئ يعرضه عليها طوال تلك السنوات، إلا أنه قدَّر ألمها، غادر صامتًا إلى غرفة أخرى، لم يُعاتبها ولم يتعجل تحقيق الزواج بشكل فعلي، فقد أدرك استحالة ذلك في الوقت الراهن.

طار "آدم ونانسي" من الفرحة بزواج أمهما الجميلة بعمهما العزيز، واكتملت أسرتهما واجتمع الشمل وصار مُحي عضوًا أصيلًا في الأسرة لا يفارقهما وقد استقرت بيده عصا سحرية يُحركهما بها كيف يشاء ومتى يشاء، فقد حققت نانسي بطولة الجمهورية في وقتٍ قياسي وكان لمُحي دور كبير في هذا الأمر، كما استوى " آدم عصام عبد العزيز" رسميًا شبلًا من أشبال القلعة الحمراء.

حاول مُحي جاهدًا أن يُبسط الأمر بينه وبين زوجته الغالية ويزيل من أمامها بعض العقبات فربما تقل قبضة اليأس حول عنق زواجهما، فالمستقبل بينهما ليس مُظلمًا إلى هذا الحد، ورويدًا رويدًا انطفأ حزنها وزال ضعفها وتملكتها قوة ورغبة حقيقية في إنجاح ذاك الزواج من أجل يتيميها اللذين وجدا في مُحي ضالتهما واستقرَّت معه سفينة حياتهما على شاطئ السعادة، فالحياة مازالت طويلة أمام الصغيرين وهي تريد حقًا أن تحافظ عليهما وعلى توازنهما النفسي إلى الحد الذي يُمكِنهما من مواجهة الحياة وتقلُباتها، رأت أنها فقدتْ حياتها الخاصة حين صارت أمًا، وأن واجبها المقدس كأم هو أن تُحافظ على براعمها الشابة لتتفتح في مناخ صحي يخلو من الكدر والحزن حتى لو كان هذا المناخ لا يُطابقها، فلا مجال للأنا ولا غاية لها سوى آدم ونانسي، تأمَّلت الواقع وحاولت استيعابه على مهلٍ، لقد حاول مُحي كثيرًا الاقتراب منها ليس فقط كزوج بل كإنسان أيضًا لكنها لم تمنحه الفرصة الكافية لتحقيق ذاك الاقتراب، بل إنها تمادت مبتعدة، فلكل فعل ردة فعل مساوية له في القوة مُخالفة له في الاتجاه.

فمضت تتلمس طريقها بقدر ما يسمح به الضوء النابع من ضميرها أملًا في انفراجة تبعث على الهدوء بداخلها لعلها

تُخفف من عبء الأثقال وتُهدئ من الروع وتسمح بتسرب بعض السرور، تركت لعقلها قيادة قاطرة حياتها طلبًا للنجاة من قلب تُدمي آهاته صمتها، استجابت لمُحي وصارت له زوجة كما تعني الكلمة من حقيقة وواقع لكن مراد لم يفارقها قط، فالعمر الحقيقي عند العشاق لا يُحسب بالسنين ولا يُقاس باللمسات، هو عندهم لحظات الشوق، لحظات الانتظار، لحظات الحنين، ويالا لذة الحنين.

ربما انتهت قصتهما معًا عند ذاك اللقاء الأخير في مكتبه، لكنها لم تكن قصة عادية مثل كل قصص الحب، هي قصة اتسم فيها القلبان بالعذرية والتضحية، فعذرية القلب معناها أنه لم يسكنه حب من قبل، فإذا التقت القلوب العذراء على الحب يكون ذلك هو الحب الأول، حب ذو صبغة لا يمكن التخلص منها أو نزعها، صبغة لا تُمحى حتى وإن جاء بعده مائة حب أو ألف زواج، فالحب الأول هو كل "حلاوة الدنيا"، هو كل أشعار الغرام وكل ألحان الهوى.

يا قدري الجميل المحتوم الذي حرمتني منه الأقدار.

يا سرِّي الصغير الخالد أبد الدهر.

أنت معي في كل لحظة، في كل همسة رغم البعد.

أحملكَ حقيقةً معي وأتلمسك داخلي.

أردد أغنيتي الأبدية معك.

لا مسافات تفصل بيننا مادام كلٌ منا يحمل الآخر داخله.

لكَ وحدكَ أُهدي روايتي، فحافظ عليها .

كانت تلك السطور هي ما تزينت بها أولى صفحات رواية رائعة، ملحمة في الحب والعذاب، خطَّتها يد "نهى الشهاوي"، إحدى أهم وأشهر كاتبات الوطن العربي والتي حصلت روايتها " حلاوة الدنيا" على جائزة البوكر الأخيرة.

فهنيئًا للمحبين بحبهم ولذته وألمه، إنه ألم يُعادل حلاوة الدنيا كلها.

و أهو ده اللي صار!